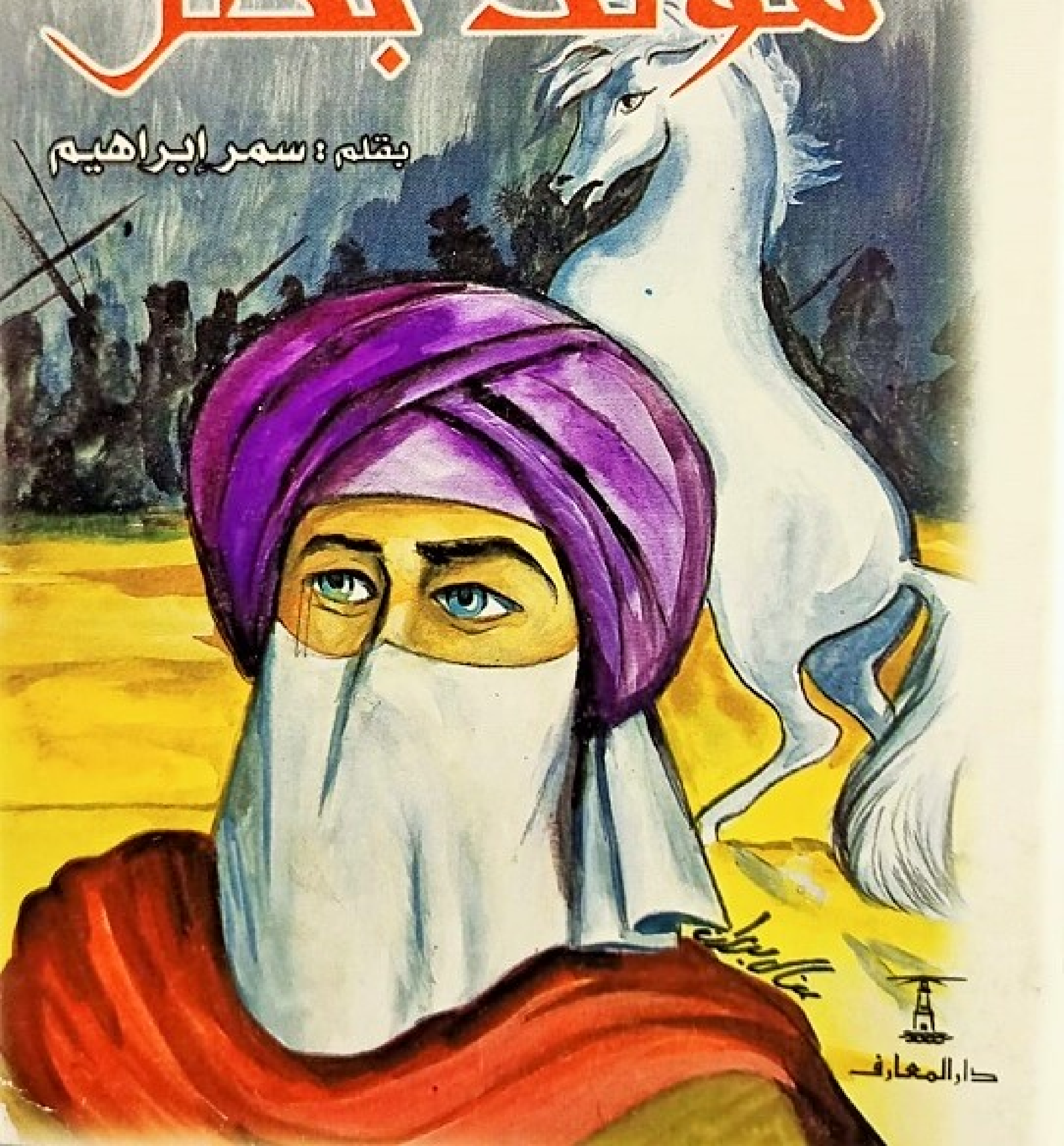
أولادنا

مولد بطل

بقلم : سمر إبراهيم



دار المعارف

أولادنا

(٣٨)



مولد بطل

بقلم
سمر إبراهيم

دار المعارف

تصميم **الغلاف** : منال بدران

الناشر : دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج . م . ع .

والد حزين

ذات نهار. نادى الشيخ أحمد ابنه عبد الله، وقال له:

- عبد الله. لماذا لاتخرج لتلعب مع زملائك؟ ولا تقوم بأى عمل، وتجلس في البيت صامتا دائما،ولا تتحدث إلى أحد إلا إذا تحدث إليك.

ولزم عبد الله الصمت، ولم يرد على أبيه، فعاد يقول له:

- أتخاف من شيء، لو خرجت، أو تحركت، أو تكلمت؟

ولم يرد عبد الله بكلمة. ودخلت أم عبد الله «سلمى» في تلك اللحظة إلى القاعة، ونظرت إلى زوجها، فرأته متكدرا، يظهر على وجهه الهم والضيق. فعرفت أن محنته ومشكلته في ابنهما عبد الله. وقبل أن تنطق بكلمة زقزق فأر فى ركن من البيت، فانتفض عبد الله فزعا، وفر هاربا إلى صدر أمه سلمى. فقالت له سلمى ناهرة ومشفقة:

- ماذا جرى لك يا عبد الله. لا تخف، إنه مجرد صوت فأر.

عندئذ صاح أبوه قائلا لسلمى:

- انظرى . هذا هو حال ابنك.

والتف إلى عبد الله قائلا بغضب:

- بئس الفتى أنت. ماذا بك؟ أتخاف من فأر؟

عندئذ، قال عبد الله، وهو يرتعد:

- يا أبى إننى أسمع أخبار غارات العدو«الروم»، على أطراف مدينتنا ملطية ومزارعها. ولذلك أخاف من كل صوت. وأمكث فى البيت.

وهم أبوه أن يعنفه ويؤنبه، لكن سلمى تدخلت قائلة:

- يا شيخ أحمد إن ابننا لم يحن أوان نضجه بعد، فأمامنا أربع سنوات يمكن أن يحدث فيها الكثير، ويصبح عبد الله أفضل حالا، وسيكون فتى فتيان بنى سليم، أليس كذلك يا عبد الله؟

لكن عبد الله كان قد نام على الكنبة، بجانب أمه، غير مكترث بحديثهما، وقد تسلل ضوء الشمس إلى نصفه الأسفل، ولم يتحرك مبتعدا عن الشمس. وعندئذ قال الشيخ أحمد لسلمى:

- لقد بلغ ابننا هذا ستة عشر عاما. ولم يعد طفلا، ولاأظن أن ولدنا هذا سيكون فارسا أبدا، بين فرسان بنى سليم، أو ستكون له شجاعة وجسارة فى الحرب والنزال، وسيكون عارنا بين قومنا من بنى سليم، وفى ملطية كلها.

فقالت له سلمى:

- لقد طرأت لى فكرة، أعتقد أنها ستغير حال ولدنا. لماذا لا تذهب إلى ابن عمك الشيخ عقبة؟

عندئذ أشرق وجه الشيخ أحمد. وقال بأمل:

– إنها فكرة طيبة يا سلمى. كيــف غـابت لى عـن بـال، كـل هـذه السنين، سأذهب به غدا إلى الشيخ عقبة، لعل الله أن يغير حاله على يديه، ولكن، يجــب علــى أن أعـد هديـة قيمـة للشـيخ عقبـة، هديـة تجعله يقبل ابننا بين تلاميذه، ويخصه بالاهتمام والرعاية.

* * *

نابغة العصر

صحب الشيخ أحمد ابنه عبد الله، إلى بيت الشيخ عقبة، وطرق الباب فانفتح، وظهر خادم نظيف الثياب. وقال الشيخ أحمد للخادم:

- قل لسيدك، إن الشيخ أحمد بن مصعب، يريد مقابلته لأمر هام.

وذهب الخادم وعاد، وأدخل الشيخ أحمد وابنه، إلى غرفة استقبال عربية الطراز، على مناضدها هنا وهناك كتب فاخرة التجليد. وبعد فترة وجيزة، أتى إليهما الشيخ عقبة، باش الوجه، قائلا للشيخ أحمد:

- أهلا وسهلا بك يا ابن العم. كيف حالك ؟

وتصافح الشيخان، وتعانقا، وقال الشيخ أحمد للشيخ عقبة:

- نحن بخير والحمد لله.

وجلس الشيخ عقبة. وجلس بجلوسه الشيخ أحمد وابنه. ولاحظ الشيخ أحمد أن ابنه عبد الله، ينظر إلى الشيخ عقبة باحترام وود. وقال الشيخ أحمد للشيخ عقبة:

- لقد أحضرت لك هدية قيمة، أرجو أن تنال رضاك. وقدم الهدية إليه، فأخذها الشيخ عقبة، وسارع بفض غلافها، ليراها، وأخرجها، وبسطها بيديه، وراح ينظر إليها مبهورا، وهو يقول:

– إنها عباءة ثمينة حقا، ومطرزة بالقصب المذهب، وتليق بمقابلتى للأمراء. شكرا لك يا ابن العم .

ووضع الشيخ عقبة العباءة على غلافها، والتفت إلى الشيخ أحمد قائلا:

– خيرا إن شاء الله.

فتنحنح الشيخ أحمد، وقال برجاء، مشيرا إلى ابنه:

– هذا ولدى الوحيد، وهو كما ترى، فتى جميل المظهر، حسن الثياب، لكنه على ذكائه وفطنته، فيما أرى، مصاب النفس بالكسل، والخمول، مخلوع القلب، فهو سريع الخوف.

وتضاحك الشيخ أحمد، وقال هامسا، متفاديا أن ينظر إلى وجه ابنه:

– إنه إذا كان نائما فى الظل، وتسرب إليه ضوء الشمس، حتى يغمر جسده، فى عز الصيف، لا يتحرك من مكانه، مبتعدا عن الشمس. هل تصدق أنه يخاف حتى من صوت فأر؟

فنظر الشيخ عقبة إلى وجه عبد الله، فوجده هادئا، غير مكترث بما يقوله أبوه عنه، فقال الشيخ عقبة:

– عجيب.

وعاد الشيخ أحمد يقول للشيخ عقبة:

– والأعجب أنه يقضى وقته شاردا، لايكلم أحدا، ولايسمع من يكلمه، أما إذا سمع سؤالا، فإنه يجيب إجابة تدل على ذكائه.

– الحمد لله. بقى له أهم شىء فى الإنسان.

وعاد الشيخ أحمد، يقول:

– لقد جئت بولدى هذا إليك، ليحفظ القرآن على يديك، والحديث الشريف، وعلوم اللغة، ويحضر مجالسك العلمية التى يحضرها كبار علماء الطبيعة، والرياضيات، والفلك، وغيرها من العلوم.

وتنهد الشيخ أحمد ثم قال بأمل :

– لعل العلم يشفى نفس عبد الله مما به من علة ومرض.

فقال الشيخ عقبة بتأكيد وزهو، وهو ينظر إلى وجه عبد الله:

– لا تخف يا شيخ أحمد. سأهتم بهذا الفتى اهتماما خاصا، فأنا أرى الذكاء يشع من عينيه، ويتألق فى جبهته. وسوف ألقنه، علوما كثيرة إن شاء الله، وسوف يحضر مجالسى العلمية، ليتغير حاله ويعرف الكثير من علوم الدنيا والآخرة.

وسكت الشيخ عقبة لحظة، ثم قال وهو يتنحنح:

– لكن تلك الأمور ستكلفك كثيرا من المال.

فمد الشيخ أحمد يده وراء عباءته، وأخرج له كيسا، وقال له وهو يقدمه إليه:

– لك ما تريد يا شيخ عقبة من مال، هذه ألف دينار ذهبى.

واستأذن فى الانصراف، وغادر بيت الشيخ عقبة، تاركا وراءه ابنه عبد الله ليبدأ درسه الأول.

اهتم الشيخ عقبة بتلميذه «عبد الله» اهتماما خاصا، وأعطاه معظم وقته في الليل والنهار، فقد بدا على عبد الله في دراسته ذكاء واضح، ورغبة في العلم، وسرعة في الفهم، وقدرة ذهنية عالية، لا عهد له بمثلها في أحد من تلاميذه الآخرين. وكان عبد الله قوى الذاكرة. بحيث يحفظ في يوم واحد، ما يحفظه سواه في شهر.

وبعد مضى ستة أشهر، ذهب الشيخ عقبة بنفسه إلى الشيخ أحمد، ليبشره بأن ابنه عبد الله قد حفظ القرآن الكريم، وحفظ معه أربعة آلاف حديث، وقال الشيخ عقبة للشيخ أحمد، وهما جالسان، في غرفة الضيوف، ومعهما كان يجلس عبد الله:

– إن البطال هذا.

فقاطعه الشيخ أحمد منزعجا، قائلا في دهشة:

– البطال؟ من تقصد بالبطال؟

فابتسم الشيخ عقبة. وقال:

– إنه ابنك هذا: عبد الله.

فقال الشيخ أحمد بحزن:

– أو قد صار لقبه عندك: البطال؟

فقال الشيخ عقبة، وهو يضحك ضحكا خفيفا:

– لقد أطلقت هذا اللقب عليه، عندما جئتني به لميله إلى البطالة بالكسل البدني، وعدم الحركة بالخمول الجسدي.

واستطرد مضيفا:

- وقد اعتاد زملاؤه من طلابى، على مناداته بهذا الاسم منذ ذلك الحين، ولكن اطمئن يا شيخ أحمد. فهو كما ترى الآن لا يكترث بهذه الصفة.

عندئذ قال الشيخ أحمد بحزن وهو ينظر إلى عبد الله الهادىء الوجه:

- أيعنى هذا أن ابنى هذا لن تتحسن حاله، وأنه سيظل هكذا، كسولا دائما ، خائفا أبدا؟

فقال الشيخ عقبة:

- لا تحزن يا شيخ أحمد، فكل قد خلق لما هو ميسر له، إن الله قد أغنى هذا الفتى غنى خاصا فأحيا فيه نفسا روحانية محبة للعلم، وهو فى رأيى فلتة نادرة الوجود. وقد جئت الآن طالبا جائزتى منك، على هذه البشارة السعيدة لكى أبدأ فيما بعد، ومنذ الغد، دروسى العلمية لابنك، وأضمه إلى العلماء الذين يحضرون معى مجالسى العلمية.

❀ ❀ ❀

ينبوع الحكمة

مر عام ونصف، والبطال يجلس فى كل يوم إلى الشيخ عقبة، يجتاز الاختبارات العلمية، التى يعقدها له، بنجاح، وذات يوم دعاه الشيخ عقبة إليه، وقال له:

- يا بطال. الليلة ستحضر معى مجلسى العلمى، ومناظرتى مع العلماء، وهذا المجلس لا يحضره عندى إلا العلماء الأذكياء النابهين. وقد دعوت اليوم إلى مجلسى هذا عالما يمنيا هو السيد: قليح.

فسعد البطال بدعوة الشيخ عقبة له، وشكره، وذهب إلى بيته ليستريح، ثم عاد إلى بيت الشيخ عقبة بعد صلاة العشاء. وأدخل البطال إلى قاعة المجلس العلمى، فرأى جماعة من الشيوخ جالسين على الوسائد الشرقية، ومعهم طلاب علم نابهين يشع من عيونهم الذكاء، وعرف أكثرهم حين رآهم. وتوقفت عيناه عند رجل يبدو أنه يمنى. وحدث نفسه أنه هو السيد: قليح. وكان الشيخ عقبة يتصدر مجلس العلم فقال لمن معه بزهو:

- هذا هو تلميذى البطال، أنبه التلاميذ لدى. تقدم يا بطال، واجلس حيث تشاء.

وجلس البطال بالقرب من السيد قليح. وقال الشيخ عقبة للحاضرين، بلهجة ظهر فيها التحدى:

- الليلة، سنعقد مناظرة بينى وبين السيد قليح، الذى يقال إنه من أفضل علماء الدنيا والدين، والذى اختار الإقامة بمدينتنا: ملطية. ولكم

أن تشاركوا فى هذه المناظرة، حين يعجز أحدنا عن إجابة سؤال صاحبه، وتحكما فى النهاية له أو على، ولى أو له.

وفوجئ السيد قليح بما قاله الشيخ عقبة، وبدأ عليه أنه لم يكن يعلم بخبر هذه المناظرة، لكنه ابتسم، واعتدل فى مجلسه استعدادا لمناظرة لا يعرف بعد موضوعها.

وقال السيد قليح:

- يا شيخ عقبة المسألة هى: امرأة زوجها مريض، ويعانى من سكرات الموت، وهو مدين لها بمائة دينار مثلا، ولا يجوز له أن يقر بها لزوجته، إلا إذا وافق الورثة كما يقول الشرع. فما الحل الفقهى لهذه المسألة عندك؟

فابتسم الشيخ عقبة. وقال فى الحال وهو يترنح كفقيه:

- نأتى برجل تثق فيه الزوجة، ويقر الزوج المريض، شاهدا على نفسه، بأن زوجته كانت قد وكلته بقبض مائة دينار من هذا الرجل، كانت لها عليه، وأنه قبض هذا المبلغ منه، ولم يعطه لها بعد. وعندئذ يلزمه سداد المبلغ للزوجة، ولا يكون للورثة حق الاعتراض.

وأعجب الحاضرون بهذا الحل الفقهى لتلك المسألة المعقدة. وعاد السيد قليح يقول:

- فلننتقل إلى الحيل أو الألغاز الرياضية يا شيخ عقبة، ما عملية الطرح ثم الجمع التى تجرى فيكون ناتجهما هو ١٠٨٩؟

فصمت الشيخ عقبة، وظل يفكر مع الحاضرين حائرا، وهم يجربون فى أوراقهم. وحين يئس الجميع، قال السيد قليح:

– فلنكتب رقما مكونا من ثلاثة أرقام، وليكن مثلا: ٦٥٤، ونكتب تحته مقلوبه، وهو: ٤٥٦، ونطرحه من الأول فيكون الناتج هو: ١٩٨، ولنكتب تحت هذا الرقم الثالث مقلوبه وهو ٨٩١، ثم نجمعهما معا يكون الناتج هو ١٠٨٩. وافعل ذلك يا شيخ عقبة مع أى ثلاثة أرقام تشاؤها.

وراح الحاضرون يختبرون الأرقام الثلاثية فى عمليات طرح ثم جمع، فكانت النتيجة واحدة أمامهم دائما هى ١٠٨٩. وفجأة صاح البطال، قائلا للسيد قليح:

– معذرة يا سيد قليح أننا إذا كتبنا رقمين متماثلين. ووضعنا بينهما الرقم ٠١ فإن الناتج سيكون صفرا، مثل الرقم ٤١٤، ومثل الرقم ٥١٥، وقبل أن نقوم بعملية جمع.

فقال السيد قليح بإعجاب:

– معك حق يا بنى. فمثل هذا الرقم هو حالة الاستثناء الوحيدة فى هذا اللغز.

ونظر الجميع إلى البطال كعالم ناشئ دون العشرين، وظل البطال ينظر إلى السيد قليح بإعجاب شديد، والأسئلة تتوالى بين الشيخ عقبة والسيد قليح، فى شتى علوم الطب، والفلك، والرياضة، والمنطق. وبدا

السيد قليح متألقا فى إجابته العلمية. وظهر الشيخ عقبة محرجا فى أكثر إجاباته العلمية. وانتهى المجلس بفوز السيد قليح بين إعجاب جميع الجالسين به، وقال البطال لنفسه:

«أريد أن أعرف سر هذا الرجل اليمنى، فعلمه غزير فى كل العلوم. ويتمتع بذكاء نادر، وتفكير عميق، وفطنة سريعة. تنفذ إلى جواهر الأمور، من أقرب طريق. ترى: ما سر هذا الرجل العجيب، وما مصدر علمه الوفير؟

بعد انتهاء هذه المناظرة العلمية بين الشيخ عقبة والسيد قليح بتساوى الشيخين فى المناقشة اللغوية، والدينية، وفوز السيد قليح على الشيخ عقبة فى المناقشة العلمية، غادر الشيخ عقبة قاعة العلم فى داره، تاركا ضيوفه فى مجلسهم، وبدا البطال حزينا من أجل شيخه بعض الشيء. وفى الردهة، قابلت «مروة» أخاها الشيخ عقبة، ورأته متكدرا مغموما، يملؤه الغيظ، فقالت له:

– ما بك يا عقبة؟

فقال لها، وهو يجلس على أريكة:

– إن قلبى قد امتلأ بالحقد على هذا الشيخ اليمنى: قليح. فقد طرح علىّ وعلى تلاميذى أسئلة صعبة فى العلم، يحار معها العقل، إنه يهزأ بى يا مروة، وكلما سألته سؤالا أى سؤال أجابه فى الحال. أف، كم أريد أن يكون لى علم مثل علمه.

وجلست مروة بجانب أخيها على الأريكة، وقالت:

- ما سر ذلك الرجل فى علمه الواسع؟

فقال لها:

- إن لديه يا مروة كتابا اسمه «ينبوع الحكمة»، وهو كتاب به أسرار الأشياء، وخلاصة المعارف التى عرفها البشر، وبه حلول كافة المسائل العلمية.

فقالت له مروة:

- إذن استعره منه ، واقرأه مثله ، فتصبح فى مثل علمه .

فقال الشيخ عقبة :

- حاولت معه يا مروة، لكنه رفض أن يعيرنى إياه.

وتنهد الشيخ عقبة، وقال:

- آه. لو أننى امتلكت نسخة من هذا الكتاب، لأطلعت على سر كل خفى، وجواب كل مجهول، ولاستطعت مثله، أن أكسب عطاء الأمير الجزيل، لقدرتى على حل المشكلات العلمية فى مجالسه العلمية.

فقالت مروة:

- حاول أن تحصل عليه يا أخى بالحيلة.

فقال عقبة:

- إنه يخفى الكتاب بمنزله، فى غرفة مكتبه، التى لا يدخلها أحد سواه، داخل دولاب سحرى، لا يستطيع أحد أن يصل إليه.

فقالت مروة:

- إذن لا تحزن يا عقبة. فالله يعطى العلم من يشاء.

وكان البطال، واقفا بالقرب منهما، يبدو غير مكترث بما يقولاه، لكنه كان يرهف السمع إلى حوارهما. وحدث البطال نفسه قائلا:

«لابد أن أحصل على هذا الكتاب: ينبوع الحكمة. وأنسخه، فأعرف منه جوهر العلوم، وبواطن الأمور الخفية بالحيلة، كما قالت مروة».

وغادر البطال الغرفة، دون أن يشعر به الشيخ عقبة وأخته مروة.

* * *

المربع السحرى

فى اليوم التالى، ذهب البطال، دون انتظار، إلى بيت السيد قليح. وطرق الباب فانفتح، وظهر الخادم، ونظر إليه من أعلى إلى أسفل، مزدريا صغر سنه، وقال له بجفاء:

– ماذا تريد يا فتى؟

فقال له البطال:

– أريد مقابلة سيدك السيد قليح، فى أمر هام.

فقال له الخادم:

– ما اسمك حتى أبلغه به؟

فقال له البطال:

– قل له: عبد الله تلميذ الشيخ عقبة. وسوف يذكرنى.

وذهب الخادم وعاد، وأدخله إلى غرفة استقبال فخمة، وأقبل عليه السيد قليح، بعد قليل، ورحب به وجلس ، فجلس البطال، ثم قال بأدب شديد، وإخلاص حار:

– إننى يا سيدى شغوف حقا بالعلم. وقد أعجبت بك إعجابا شديدا فى مجلس العلم البارحة. وشيخنا عقبة يعلمنا علوما لغوية ودينية فقط، وقد لاحظت فى هذا المجلس أن خبرتك يا سيدى بعلوم الدنيا أعمق منه وأرحب، وهى علوم أحبها، وتنفع الناس، وتقدم إليهم الخير فى حياتهم، ومعيشتهم.

فقال السيد قليح:

– وماذا تريد منى؟ إذا كنت تريد أن أدرس لك العلم، فلست بمن يقدم لك هذه الخدمة العلمية. وابحث عن أحد غيرى من علماء الدنيا. فلا وقت لدى لأننى مثلك أطلب المزيد من العلم. وقد علمت نفسى بنفسى، منذ أن تعلمت القراءة والكتابة، واعلم أننى لا آخذ أجرا من طالب علم، فأنا لست مثل شيخك عقبة. وحسبى كعالم ما أناله من رواتب العلماء، من بيت المال.

فقال له البطال:

– إننى معجب بروحك هذه يا سيدى. وكل ما أريده أن تتيح لى، الفرصة، لأقرأ فى مكتبتك، وأعرف منها علما مثل علمك، إذا أذنت لى.

عندئذ ابتسم السيد قليح راضيا، وقال وهو ينهض واقفا:

– تعال معى، وسأريك مكتبتى فهى عامرة بالكتب الأساسية فى كل العلوم.

ونهض البطال، وتبع السيد قليح إلى غرفة المكتبة.

* * *

انبهر البطال حين رأى مكتبة السيد قليح، كانت مكتبة فخمة واسعة، كثيرة المنافذ، ساطعة النور، وقد اصطفت فى الجوانب دواليب الكتب من الأرض إلى الأسقف، وكانت الجدران مبطنة بالخشب، وروائح الحشائش والزهور تهب من النوافذ، إلى داخل

المكتبة. وجلس السيد قليح إلى منضدة القراءة، وجلس البطال بمقابله، وراح يتأمل صفوف المكتبة فى دواليبها. وقد كتبت فوق كل مجموعة منها أسماء علومها، ورأى سلما خشبيا فى ركن الغرفة، للوصول إلى الكتب فى أعلى الدواليب.

وقال السيد قليح للبطال:

- لقد لاحظت ذكاءك الحاد فى مجالس عقبة العلمية، وراقنى قدرتك على الإجابة عن أسئلة التفكير والذكاء، التى يحار فيها غيرك، ولذلك سأسمح لك بالقراءة هنا فيما تريد من الكتب ونسخ ما تشاؤه منها. ولك أن تسألنى عما تريده من الكتب، فى أى علم. لأرشدك إليه.

وسكت السيد قليح لحظة، ثم قال:

- أعرف طبعا أنك تواصل دراستك على يدى الشيخ عقبة إلى وقت العصر. ومن حسن حظك أننى لا أدخل إلى هذه المكتبة لأقرأ بها، إلا بعد صلاة العصر، وبوسعك أن تأتى إلى مكتبتى هذه، عصر كل يوم.

ونهض السيد قليح قائلا للبطال:

- سأنهض يا عبد الله، لآمر لنا بتحية الضيف.

وضحك وأضاف:

- فلست مثل شيخك عقبة الذى لا يحيى ضيوفه.

وانصرف السيد قليح مغادرا غرفة المكتب، وسعد البطال، وعيناه على الكتب، لأنه سيقرأ كل هذه الكتب، فى مكتبة عامرة بالكتب،

وسوف يكتشف المخبأ الخفى لكتاب ينبوع الحكمة، قصر الوقت أو طال.

* * *

ظل البطال يذهب كل يوم، بعد انتهاء درس الشيخ عقبة إلى مكتبة السيد قليح بمنزله، يمكث عصر كل يوم فى القراءة صامتا وهادئا، والسيد قليح جالس بمقابله، لا يتحرك، ولا يغادر الغرفة، وكان البطال يحافظ على ما يأخذه من الكتب، ويعيدها مكانها، بعد أن ينتهى من قراءتها.

وبمرور الأيام وثق فيه السيد قليح، واطمأن إليه. وفى أحد الأيام، وبينما كان البطال يقرأ، تركه السيد قليح، وخرج لتفقد أمور منزله وعندئذ رفع البطال رأسه عن الكتاب الذى يقرؤه، وبدا كأنه يتأمل شاردا ومفكرا فيما قرأ، ولكنه كان، فى تلك اللحظة، يجوب الغرفة بعينيه: الجدران، والدواليب، والسقف، والأرض، وتوقف به حدسه الذى ينجده دائما عند الضرورة، أمام هذه المربعات الخشبية فى الجدران. وفكر أن وراء أحد هذه المربعات الخشبية مربعا سحريا، وراءه خزانة بها كتاب ينبوع الحكمة، ولكنه لم يقم من مكانه باحثا عن هذا المربع السرى، فقد توقع أن أحدا ما يراقبه، فى غيبة سيد البيت عن غرفة المكتبة، وربما كان هذا المراقب هو السيد قليح نفسه، وربما كانت هذه المراقبة من ثقب فى باب، أو نافذة، أو جدار، وظل يتساءل ويكرر لنفسه السؤال: أى مربع مسحور هو هذا الذى يختفى وراءه كتاب ينبوع الحكمة، مثل أثمن جوهرة فى الوجود.

وبعد أيام. شعر البطال بالأمان. وبأنه غير مراقب، وكان وحيدا بمفرده فى مكتبه، فقام بهدوء عن مقعده، وأخذ يتحسس المربعات الخشبية، مربعا مربعا، ويضغط على جوانبها إلى أعلى. وفجأة، وعلى غير انتظار، دار مربع حول محوره إلى أعلى.

وبدت وراءه فجوة مبطنة بديباج أحمر. وبدا فى ظلالها كتاب سميك بعض الشيء، فأيقن البطال عندئذ أنه كتاب ينبوع الحكمة. ومد البطال يده، وأخذه، ونظر إلى غلافه، ظهرا وبطنا، وقلب صفحات منه بسرعة. وحفظ هيئته، وما كتب عليه، وطريقة كتابته بالخط الفارسى، فاستجاب لصوت بداخله، وأعاد الكتاب إلى مكانه بسرعة، وأرجع المربع الخشبى المسحور إلى وضعه الأول، وعاد هادئا إلى مقعده، وجلس يكمل القراءة، وعندئذ عاد السيد قليح بعد لحظة، واختلس البطال إليه النظر، فوجده يقرأ فى كتاب هو الآخر، دون أن يكون قد استراب فى شيء.

وإثر خروجه من منزل السيد قليح، ذهب إلى وراق وخطاط شهير فى ملطية اسمه: عمرو بن زيد، ووصف له غلاف الكتاب، وهيئته، وما كتب عليه بالخط الفارسى، وطلب منه أن يقلد صنعته وأعطاه أوراقا كتبت عليها أشعار وحكايات، ومن نفس القطع، ومن نفس نوع الورق البخارى، ليضعها داخل الغلاف القماشى السميك الذى سيجلده به. فقال له الخطاط الوراق:

– امهلنى أربعة أيام.

فقال له البطال:

– كم ستأخذ ثمنا لهذا الكتاب؟

– عشرة دنانير.

فأعطاه البطال خمسة دنانير تحت الحساب، وانصرف عائدا إلى بيته.

* * *

وعاد البطال إلى الوراق الخطاط بعد أربعة أيام، فأعطاه عمرو كتابا يشبه كتاب ينبوع الحكمة فى شكله وهيئته، غير أن باطنه ملئ بالأشعار والحكايات، وقال البطال لنفسه:

«فى سبيل العلم والمعرفة تجوز الحيل، وتهون مخاوفها ومخاطرها».

ودس البطال الكتاب المقلد تحت إبطه، ووراء عباءته، وأعطى الوراق الخطاط باقى دنانيره، ومضى فى طريقه وموعده إلى بيت السيد قليح كعادته، عصر كل يوم، وجلس فى المكتبة ليقرأ هادئا، دون أن يهتز له جفن، أو تختلج فى وجهه عضلة، أو يرتعش فى يده إصبع، وكان السيد قليح جالسا بمقابله يقرأ مثله، إلى أن غادر السيد قليح غرفة المكتبة لأمر هام، فغادر البطال مقعده، وضغط على المربع السحرى من أعلى، فدار المربع على محوره، وأخذ البطال الكتاب ووضع بدلا منه الكتاب المقلد، ودس الكتاب المنشود تحت إبطه، وراء

عباءته، وكان ثمة حزام يشده إلى صدره، وعاد هادئا، وجلس يقرأ فى كتابه كعادته. وأقبل السيد قليح بعد حين، وجلس يقرأ بمقابله.

وقرب الغروب، استأذن البطال من السيد قليح، وغادر المكتبة عائدا إلى بيته، وكان سعيدا ومسرورا، يكاد يطير من الفرح والشوق إلى معرفة أسرار كتاب «ينبوع الحكمة» ونسخها بسرعة فى أوراقه البيضاء.

وأغلق البطال عليه باب غرفته، وأضاء المصباح، وجلس إلى منضدة الكتابة وظل طوال الليل جالسا ينسخ كتاب ينبوع الحكمة بيده.

وفى اليوم التالى ذهب إلى مكتبة السيد قليح مع العصر، وجلس ليقرأ هادئا كعادته، دون أن يبدو فى وجهه وعينيه أى تغير ما، للسيد قليح، وظل على هذه الحال سبعة أيام بنهاراتها ولياليها، وقد تغيب فيها عن بيت الشيخ عقبة، إلى أن تم له نسخ كتاب ينبوع الحكمة فحمله عصر يوم وراء عباءته، وأعاده إلى مكانه، وراء المربع السحرى، واسترد كتابه المقلد، وأخفاه وراء عباءته، وعندئذ أدرك أنه لم ينم طوال سبعة أيام سوى سويعات قليلة، فأعطى نفسه، حين عاد إلى بيته، راحة طويلة، ظل نائما فيها طوال اليوم، وأشفق أبوه وأمه عليه من القراءة والكتابة والسهر، فتركاه نائما.

ولم يلحظ أحد أى تغير قد حدث للبطال، سوى الشيخ عقبة، فقد لاحظ حين عاود البطال الجلوس إلى دروسه، تفوق البطال فى علومه، واتساع المسافة العلمية والفكرية بينه وبين زملائه، بل بدا له شبيها

بالسيد قليح الــذى يكرهــه. وحـين سـأله الشـيخ عقبـة عـن سـر هـذا التفوق، قال له البطال فى سخرية خفية:

– ما أنا إلا تلميذك النجيب، وتربيتك الطيبـة يـا سـيدى الشـيخ، وما أنا إلا نقطة فى بحر علمك.

وسعد الشيخ عقبة بهذا الكلام الجميل، ولكنه ظل ينظـر إليـه فـى شك وارتياب باذلا كـل جـهده ليعـرف سـره، لكـن محاولاتـه كـانت تذهب عبثا، وأدراج الرياح.

وكان البطال كلما قرأ فى كتاب ينبـوع الحكمـة يـدرك عظمـة هـذا الكتاب، وخطورة ما به من معارف ومعلومات، ويدرك أنها يمكـن أن تدر عليه ربحا كبيرا، لم يسع إليه السـيد قليـح، بينمـا يجـرى وراءه الشيخ عقبة. ويمكن أن تستخدم فى الخـير وفـى الشـر علـى السـواء، وفى الدفاع ضد العدو، والهجـوم عليـه، وأدرك سـبب احتفـاظ السـيد قليح بهذا الكتاب، وإخفائه عن العيون، بعيـدا عـن الأنظـار، خاصـة عن أنظار الشيخ عقبة، الشديد الطمع، الكثير الطموح، الذى لا يحب سوى نفسه. وقرر البطال بينه وبـين نفسـه، أن يحـافظ، مثـل السـيد قليح، على هذا الكتاب، وأن يتم دراسته له جيدا وبإتقان، وألا يطلع عليه أحدا غيره يوما ما، إلا من يثق به وبأخلاقه، من طـلاب العلـم، ورفاق العمر.

وقرأ البطال الكتاب أكثر من عشر مـرات، حتـى حفظـه عـن ظـهر قلب، وعندئذ أخفاه بدوره فى مخبأ سرى، لا يعرفه أحد.

وعود الشيخ عقبة

عصر يوم من أيام الصيف، جلس الشيخ أحمد وزوجته سلمى، يشربان الشاى ويتبادلان الحديث، بعد أن تناولا وجبة غداء شهية. كان يجلسان فى غرفة الراحة، على كنبة وثيرة، وكانت فى الغرفة ستة مقاعد، ومنضدة فى المنتصف، فوقها زهرية جميلة بها زهور حمراء. وقال الشيخ أحمد لسلمى:

- مرت أربع سنوات، على ذهاب ابننا عبد الله، أو..

وضحك، ثم أكمل حواره:

- أو.. البطال، كما يدعونه، إلى مجلس الشيخ عقبة. ولم يتغير حال ولدنا.

فقالت سلمى معترضة:

- كيف لم يتغير، وهو يستيقظ مبكرا، ويذهب إلى الشيخ عقبة، ويحضر مجلسه، ثم يذهب إلى منزل السيد قليح، ليقرأ فى مكتبته، ويعود إلينا مع الغروب، ليقرأ معظم ساعات الليل، لقد صار ولدنا عالما صغيرا، يشارك فى مجلس العلم. ألا ترى يا رجل أن ولدنا قد فارقه كسله وخموله، فى سنوات أربعة فقط.

فقال لها الشيخ أحمد:

- اعترف بذلك، ولكن هل تخلص من الخوف والجبن يا سلمى؟

فقالت سلمى بتردد:

– أظن أنه قد تخلص منه، مع شفائه من الكسل.

فقال الشيخ أحمد ساخرا:

– تظنين. وأنا لا أظن.

وسكت لحظة، وتنهد ثم قال:

– كم أخاف من العاقبة وقد كتبت اسمه فى المجاهدين بديوان الجيش، منذ أربع سنوات. ولو حدثت غارة على ملطية، أو هددنا بحرب، وقد أقبل الصيف، فسوف يدعى ابننا البطال، للمشاركة فى القتال. كم أتمنى حقا أن يكون قد فارقه الخوف، وشفى من داء الجبن.

فقالت سلمى:

– إذن فعليك أن تبلغ ابننا عبد الله، بما فعلناه، وقد صار ذا عقل راجح، فيفهم لماذا فعلنا ذلك، ولا يفاجأ لو طلب للجهاد، والحرب.

فقال الشيخ أحمد:

– معك حق، أنت على صواب، استدعيه يا سلمى.

فنادت سلمى على الخادم سعيد، وطلبت منه أن يبلغ عبد الله فى غرفته، بأن والده يريد أن يتحدث معه فى أمر هام. وأقبل عبد الله إلى غرفة الراحة. فطلب منه أبوه أن يتقدم ويجلس، وتقدم البطال، ليجلس مع والده، لكن يده اليمنى، ارتطمت بالمنضدة، وهو فى طريقه إلى أبيه. فاهتزت المنضدة، وسقطت الزهرية، وتكسرت وتناثرت

زهورها، وكان لسقوطها دوى مفاجئ، فقفز البطال، وفر فزعا خارج الغرفة، من صوت سقوطها. عندئذ قال الشيخ أحمد ساخرا:

– أرأيت يا أم البطال؟ إن ابنك هذا لايزال يخاف من أى صوت، حتى ولو أنه كان هو الذى أحدثه. إنه لايزال جبانا يا سلمى.

ونادى الشيخ أحمد ابنه بصوت عال، قائلا:

– تعال يا بطال. هذا أمر.

وأقبل البطال خائفا. يقدم رِجْلا ويؤخر أخرى، فقالت له سلمى:

– ادخل يا بنى. لا تخف، فأنت الذى أوقعت زهرية الورود، تعال يا عبد الله.

وتقدم البطال، وقد ظهر على وجهه الأسف، والخجل من حاله، ونظر إلى أبيه فوجد الغضب والحزن فى وجهه. فقال له:

– لا تغضب يا أبى، فلم أقصد إزعاجك، ولكن أخبار الغارات تصل إلىّ كل يوم، فتجعلنى أفزع من كل صوت، وأعيش بسببها فى خوف حتى وأنا معكم فى داخل هذا البيت.

فقال له أبوه، متردد بين التأنيب والإشفاق:

– لماذا تفزع يا بنى، وأنت هنا، وبيننا، فى بيتك، فى مأمن.

ثم قال له الشيخ أحمد:

– يا بنى. إنك تعلم، وعقلك فى العلم راجح، أن مدينتنا ملطية، مدينة حدود تجارية وعسكرية، ومفتاح الرومان إلى الشام، والعراق

وعلينا حمايتها من العدو، فليس لنا منه مفزع ولا مهرب، سوى سيوفنا، وقتاله، وصده.

فقال البطال لنفسه: «ويلى سيخوض أبى فى الحديث عن القتال والشجاعة. ويوجه إلىّ لوما جديدا. فلأشغله عن غايته هذه بتاريخ ملطية، وجغرافيتها».

وقال البطال لأبيه:

– أعرف عن ذلك الكثير يا أبى. إن الروم أعداءنا يريدون أن يستولوا على مدينة ملطية، التى أخذناها نحن منهم، ومن قبل أخذوها هم من الفرس، وضموها إلى الامبراطورية الرومانية البيزنطية، الشاسعة الأرجاء. وأعرف أن بقاع أرمينية كثيرة الجبال والهضاب، والسهول وتبلغ مساحتها ثلاثمائة كيلو متر مربع.

فقال الشيخ أحمد بهدوء، متألفا له، ليخلص مما يقوله إلى مفاتحته فيما أراده من أجله. قال:

– من الواضح يا بنى أنك قرأت الكثير عن جغرافية أرمينية. وتاريخها. لكنك لم تعرف لماذا يريدون أن يأخذوا منا مدينة ملطية بالذات، وقبيلتنا، قبيلة بنى سليم، تنهض بعبء الدفاع عنها، مع قبيلة بنى كلاب.

فقال له البطال:

– بل أعرف الكثير يا أبى. إنهم يريدون منا مدينة ملطية، طمعا فى جبالها العالية التى تتدفق منها المياه، إلى نهرى دجلة والفرات. ولخصوبة سهولها ووديانها، وخاصة فى مرج العيون.

وأدرك الشيخ أحمد أن ابنه البطال، يبعده بهذا الحديث عن غايته، فقاطعه قائلا:

- يا بني إنك تعلم أن شهور الصيف قليلة فى هذا الإقليم، وأن شتاءها قارس، ولذلك يحاول العدو استغلال شهور الصيف، للإغارة على ملطية.

فقاطعه البطال قائلا ببراءة شديدة:

- أعلم ذلك يا أبى، ولذلك أحاول الرجوع دائما مع الغروب، وأحرص على ألا أتاخر خارج المنزل.

فزفر الشيخ أحمد زفرة طويلة ساخنة، وقال بغيظ:

- اسمعنى يا بنى، وفكر فيما أقوله لك.

ثم فأجاه قائلا بحسم:

- لقد كتبت اسمك فى ديوان المجاهدين بالجيش، منذ أربع سنوات.

فصاح به البطال فزعا :

- لماذا يا أبى لماذا فعلت ذلك بى؟

فنهره الشيخ أحمد قائلا:

- من تظن نفسك؟ أتظن نفسك خيرا من شباب بنى سليم الذين يذهبون للقتال؟ كيف تقبل أن يدافعوا عن ملطية، وعنك ، ولا تدافع أنت معهم عن ملطية ، وعنا؟

ولزم البطال الصمت، وعاد أبوه يقول له برفق، ورجاء:

- فلتعرف إذن يا ولدى، إننى أقبض راتبا سنويا من الجيش باسمك، وأن اسمك مدون فى ديوان المجاهدين، كفارس من الفرسان. وقد بلغت من العمر عشرين سنة. وأعتقد أنك ستطلب للجهاد، إذا لاحت بشائر إحدى الحروب، فجهز نفسك لهذا الأمر.. من الآن.

وبدا الرعب الشديد على وجه البطال، وردد بذعر:

- أنا فارس فى الجيش. أنا فارس فى الجيش.

وانتفض البطال واقفا، والتصق بجدار الغرفة، ثم جلس على الأرض، مخفيا وجهه بيديه، وهو يقول بصوت باك، خفيض، متقطع:

- لماذا كتبت اسمى بديوان المجاهدين يا أبى. لماذا؟ لماذا؟ إننى أخاف من الحرب والقتال، ولا أقدر على ركوب الخيل. وقد حاولت منذ ثلاثة أيام ركوب الحمار، فرمى بى على الأرض مرارا، رافضا أن يعترف بى.

فقالت له أمه وهى تبتسم:

- قم يا بنى. لا تجزع فأنت لن تخرج إلى الحرب الآن.

عندئذ هب البطال واقفا، وغادر الغرفة قائلا:

- لن أخرج أبدا يا أبى، وإذا حدثت غارة سأختفى فى هذا البيت حتى تنتهى.

فزعق أبوه من ورائه فيه:

– وماذا تفعل لو دخلوا عليك هذا البيت؟ هل ينجيك اختباؤك هنا؟

فعاد البطال، ووقف على الباب، قائلا بتوسل:

– فلنغادر ملطية إذن، ونذهب إلى بلد بعيد لا تطولها يد العدو.

فقال له أبوه:

– ولكن الجهاد يا بنى واجب على كل مسلم.

فقال البطال بلهجة العالم حقا:

– ومن قال يا أبى إن على كل مسلم أن يحمل سلاحا؟ الجهاد يا أبى فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين ـ من قال إن على كل مسلم أن يحمل سلاحا وهناك سلاح العلم، وسلاح السيف، ولهذا أهله. ولذلك أهله. العلم يا أبى سلاحى، وهو أنفع للناس، وهو الجهاد الأكبر، ولغيرى الجهاد الأصغر.

فنهض الشيخ أحمد غاضبا، واقترب من البطال، قائلا:

– أهذا هو ما علمك إياه الشيخ عقبة، أن يؤكد خوفك، وجبنك. نحن هنا فى ملطية، فضع علمك فى خدمة القتال، واحمل سيف الحرب.

وسكت الشيخ أحمد لحظة، ثم قال بهدوء:

– لقد فات أوان كل قول آخر يا بنى. ولكن انصرف الآن عسى أن أجد لك ولنا مخرجا مما نحن فيه.

ومرت عدة أيام، وكان الشيخ أحمد جالسا يتناول إفطاره حين سمع طرقا على الباب، وجاء الخادم سعيد يخبره بأن أحد الجنود بالباب، ويريد مقابلته. فنهض الشيخ أحمد وذهب إلى غرفة الاستقبال، فرأى أمامه صبيا فى مثل عمر ابنه البطال، يرتدى ملابس حربية. وقال له الشيخ أحمد بتوجس:

– ما الأمر يا ولدى؟

فقال له الصبى:

– اسمى منصور، وقد جئت إليك برسالة من ديوان المجاهدين، لأبلغك أنه قد آن أوان خروج ابنك عبد الله، للتدريب الحربى معنا، استعدادا لقتال الروم.

وقبل أن يكمل الفارس كلامه. سارع الشيخ أحمد يقول فى دهشة:

– البطال يخرج للقتال والنزال؟!

ثم استدرك قائلا:

– ماذا حدث؟

فقال له الفتى فى عجب:

– لقد جئت فى طلب شاب اسمه عبد الله، وليس اسمه البطال. وأنا أنفذ ما أمرت به.

فقال له الشيخ أحمد بخجل:

– معذرة يا ولدى. البطال هو لقب ابننا عبد الله.

فضحك الفتى، وقال:

– لقد جئت إذن في طلب عبد الله البطال، فالروم قد أرسلوا بمجموعة من الجواسيس والعيون لجمع المعلومات عن جيشنا واستعداداتنا، وألقينا القبض على بعضهم، فاعترفوا لنا أن امبراطور الروم يعد العدة لغزو ملطية. ولذلك يدعو الأمير إلى الجيش، كل من قيد اسمه في ديوان الجند، للتدريب على القتال.

وأخذ الشيخ أحمد من الفتى الرسالة التي يحملها إليه. وقال باستسلام:

– ابلغ رئيس ديوان المجاهدين، إن ابني البطال، أقصد ابني عبد الله رهن أمره، وسآتي به بنفسي إليه.

واستأذن الفتى وانصرف، وبدأت حيرة الشيخ أحمد. كيف سيجعل ابنه يخرج من البيت، وينضم إلى الجيش؟ وأحس أن في قلبه عاصفة شديدة، ويوشك رأسه معها أن ينفجر.

وظل الشيخ أحمد حائرا متوترا، قلقا، يذهب ويجيء في غرفة الاستقبال، ثم حزم أمره وذهب إلى سلمى في غرفة المعيشة، وقال لها دون مقدمات:

– الأمير عبد الوهاب يدعو ابننا البطال للالتحاق بالجيش.

فقالت سلمى بلهفة:

– بهذه السرعة.

فقال لها الشيخ أحمد بيأس:

- نعم. بهذه السرعة. وعليك أن تتصرفى معه، فقد فشلت فى إقناعه.

فقالت له سلمى ساهمة:

- دع هذا الأمر لى. سأتحدث معه بطريقتى، حين يعود فى الليل.

فى الليل،جلست سلمى مع ابنها البطال، وقالت له:

- هل ترضى أن تقع أمك أو أختك الصغيرة أسيرة فى أيدى العدو؟ هل ترضى أن يبيع أبوك البيت، ويرد مبلغ ألفى دينار، أخذها أبوك من الجيش، راتبا لك كجندى. ليس عندنا شيئا نبيعه يا بنى لرد هذا المبلغ إلى الأمير عبد الوهاب، ولو فعلنا ذلك. سيعيّرك شباب بنى سليم بالخوف، والجبن، وسيشمت بنوكلاب، فى بنى سليم، لأن بينهم شاب به خوف من المعركة، بل شديد الجبن. ولم يجبها البطال بحرف واحد، ولم ينظر إليها، فقد ظل صامتا، ينظر إلى الجدار.

وفى الوقت نفسه كان الشيخ أحمد، فى بيت الشيخ عقبة، يستعين به لإقناع ابنه البطال بالانضمام إلى الجيش، فقال له الشيخ عقبة:

- سأقنعه إن شاء الله، فدع هذا الأمر لى، لكن لى شرطا عليك.

فقال له الشيخ أحمد بلهفة:

- مرنى،فأنا لك سامع مطيع.

فقال الشيخ عقبة، وهو يبتسم:

– إذا أقنعته بالالتحاق بالجيش، فجائزتى عشر الراتب الذى قبضته عن البطال طوال سنوات أربع، أى مائتى دينار فحسب. وهذا أفضل لك من..

فقاطعه الشيخ أحمد قائلا:

– قبلت. لك ما تريد أيها الشيخ الجليل.

ونادى الشيخ عقبة خادمه، وقال له:

– اذهب إلى بيت البطال، وعد به، وقل له إننى أريده فى أمر هام.

وانصرف الخادم مسرعا، والتفت الشيخ عقبة إلى الشيخ أحمد قائلا له:

– اذهب الآن بسلام، ولا تحدث ابنك البطال هذا فى هذا الأمر. ودع أمره لى.

وانصرف الشيخ أحمد شاكرا، وآملا الخير. وبعد حين أقبل الخادم بالبطال. ودعاه الشيخ عقبة للجلوس، فجلس. وقال الشيخ عقبة:

– لقد طلبك الأمير عبد الوهاب، للالتحاق بالجيش، ولا راد لأمره، حتى لو ردَّ أبوك إليه، ما أخذه منه، راتبا لك، طوال أربع سنوات.

وشحب وجه البطال، وقال باكيا:

– إننى لا أريد الذهاب إلى المعركة، أى معركة. فأنا لا أعرف من الحرب والقتال سوى الطعن فى صدر دجاجة مشوية، والضرب فى رغيف طرىّ.

فضحك الشيخ عقبة، وقال:

- وأنا مثلك والله.

وسكت لحظة، ثم قال:

- من قال إنك ستحارب، أو حتى تتدرب على الحرب.

فقال له البطال بلهفة:

- حقا. كيف؟

فقال له الشيخ عقبة. مهونا الأمر كله:

- سنرتدى فقط ثياب القتال. وتبقى معى فى الصفوة الخلفية. مع الفقهاء والقراء، فإذا ما انكسر الروم كبرنا قائلين: الله أكبر. وإذا انهزم جيشنا، والعياذ بالله. نكون أول الهاربين، أنا وأنت.

فقال له البطال:

- لكننى يا سيدى إذا سمعت صوتا عاليا فجأة، أفر بعيدا، هذا إذا لم أسقط مغمى على، فلا أتمكن من الفرار. وكيف بى إذا رأيت تشاحن الجند وتصارعهم. وصراخهم ودماءهم، وأشلاءهم، هل تحملنى قدماى؟

فقال له الشيخ عقبة:

- سأعمل على أن تكون فوق ربوة عالية. تنظر منها إذا شئت ساحة القتال، وتختفى حينما تريد وراءها، إذا شئت ألا ترى شيئا.

فقال له البطال، وقد لاحت فى وجهه بشائر القبول:

- والتدريب على السلاح قبل المعركة.

فقال له الشيخ عقبة:

- دع هذا الأمر أيضا لى. فلن تذهب إلى هذا التدريب. فقط سترتدى ثياب الحرب، ولا تخرج إلى ميدان القتال إلا معى.

فقال البطال باستسلام ويأس:

- افعلوا بى ما تشاءون، فإنى مطيع لأمركم.

* * *

وحين عاد البطال إلى بيته، كان أبوه قد انتهى من صلاته لتوه، ورفع كفيه إلى السماء فى غرفة الاستقبال قائلا: «يا مغير الأحوال، غير طباع ولدى البطال».

وفوجئ الشيخ أحمد بابنه البطال يدخل عليه قائلا له:

- أبى. سأذهب مع الجيش، إلى أرض المعركة.

وغادر البطال الغرفة، ولم يقل شيئا آخر، وذهل أبوه مما سمعه، فراح يردد فى خشوع: الحمد لله. الحمد لله.

* * *

فوق السحاب

عصر يوم، ذهب البطال إلى منزل الشيخ قليح، وأخبره بأنه سيخرج مع الجيش، فسعد السيد قليح بهذا الخبر، وقال للبطال:

– عليك بالاستفادة، إذن بعلمك وتفكيرك، فى المعركة، فأنت يا بنى تمتلك ذكاء حادًا، ومعرفة علمية لا تتوافر للكثيرين سواك فى الجيش، وأنت بعد شاب، وأكثر قدرة على الحركة والاحتمال.

ووجم البطال، أمام حديث السيد قليح عن المعركة. وخجل من إخباره باتفاقه مع الشيخ عقبة، الذى لا يحبه ولا يرضى عنه، فقال له:

– كيف استفيد بالعلم فى المعركة؟

فقال له الشيخ:

– بالاستعداد لهذا اليوم العظيم.

قال البطال محدثا نفسه: «بلى. اليوم العظيم على!!».

وأضاف قليح:

– بالقراءة فى كتب الفروسية، وفنون القتال النهارية، والليلية.

فقال له البطال عندئذ باهتمام:

– حتى ذلك اليوم العظيم، لنا أو علينا، سأقرأ فى مكتبتك عصرًا، واسمح لى بأن استعير كتابًا فى الفروسية، لأقرأ فيه ليلاً.

فقال قليح باسما:

- إنك فتى أمين، وطيب، وسأسمح لك باستعارة ما تريد.

فشكره البطال، وراح يتنقل بين الكتب باحثا عن كتب في الفروسية وفنون القتال.

❁ ❁ ❁

عند شروق الشمس، والبطال لا يزال في غرفته، أقبل والد البطال، وقال له:

- ألا تزال تقرأ؟ ماذا تقرأ، وأنت..

فقاطعه البطال قائلا:

- وأنا مقبل على القتال، اطمئن. فأنا أقرأ كتابا في الفروسية استعدادا ليوم القتال.

فقال له أبوه:

- ما تقرؤه أمر هام، ولكن عليك قبل كل شيء أن تتدرب على ركوب جوادك: السحاب.

فصاح البطال بدهشة:

- جوادى: السحاب، السحاب جوادى؟!

فقال له أبوه:

- لقد وهبته لك من اليوم. فلا تخف من جواد، خاصة إذا كان هذا الجواد هو جوادك. تعال، وسأعلمك: عمليا فن ركوب الخيل.

وغادر البطال البيت مع أبيه إلى حظيرة الخيل، فرأى حصانا جميلا، بديع المظهر، أشهب اللون، فى جبينه غرة بيضاء، وأعجب البطال بالحصان الجميل، وتمنى أن يركبه الآن، واقترب أبو البطال من الجواد، وربت على رقبته بكفه، ثم ركبه، قائلا:

- راقبنى فيما أفعله يا بنى.

وراح يتمشى به فى الأرض الفسيحة، ثم توقف بالجواد أمامه، وقال، والحصان ينقل حوافره فى زهو براكبه، ورغبة فى العدو والانطلاق:

- أترى، كيف أنه جواد وديع، مطيع لراكبه، وسهل القيادة.

وعجب البطال حين رأى الحصان ينظر إليه بودّ، ويتقدم نحوه، ويحرك له رأسه.

عندئذ ابتسم أبو البطال، ونزل عن الجواد، قائلا:

- أترى. لقد أحبك الجواد، إن السكر هو أحب طعام للحصان، وعندما يأكله يسعد، ومد يده فى جيبه، وأخرج كيسا به قطع من السكر، قدمها للبطال قائلا:

- خذها وأطعم الحصان بيدك، فسوف يزداد لك حبا.

فأخذ البطال قطع السكر، ووضعها فى كفه، وراح يطعم الحصان بيده الأخرى قطع السكر قطعة قطعة. وفكر أن الحصان فى شبابه مثله، وأنه سيصبح رفيقه الدائم فى كل مكان، ثم ربت على رقبته

وظهره، وتحسس وجهه، والحصان يحرك قدميه الأماميتين فى رضا. وتشجع البطال، ووضع قدمه اليسرى فى ركاب السرج، ورفع نفسه مرتكزًا بقدمه على الركاب مطوحًا بساقه الأخرى أعلى ظهر الحصان، ويسراه، ممسكه بمقدمة السرج، مثلما فعل أبوه، فوجد نفسه يستقر بهدوء فوق ظهر الحصان. وتناول اللجام بيديه، وسار به فى راحة، فى الساحة الفسيحة موجهًا باللجام حركته يمنة ويسرة. وتعجب لأن الحصان لم يلقه على الأرض، مثلما فعل معه الحمار، فلكزه لكزًا خفيفا بالمهاز فى قدميه، فعدا الحصان به عدوا خفيفًا حول الساحة، وسمع ضحك أبيه السعيد به. وحين عاد إلى أبيه ونزل عن الحصان، كان يشعر بسعادة عظيمة، لم يشعر بمثلها، إلا عندما فاز بكتاب «ينبوع الحكمة».

وظل ركوبه لجواده «السحاب» هو هوايته المفضلة صباح كل يوم، قبل أن يذهب إلى بيت الشيخ عقبة. وفى نهارات أيام الجمع، كان يركب الجواد، ويعدو به فى المراعى الفسيحة، ويوقفه فجأة، ويستدير به يمنة ويسرة، وهو يعدو به فجأة، ويجعله يشب على قدميه الخلفيتين وهو يصهل، أو ينقل أقدامه راقصًا به.

✿ ✿ ✿

ثم، حان يوم الخروج مع الجيش، وهو لم يتدرب بعد على القتل بسيف، أو برمح، أو بسهم. ولم يعرف من القتال سوى ما قرأه فى الكتب، وكان يقاوم شعوره بالخوف، محدثًا نفسه: «لقد وعدنى

الشيخ عقبة وعودًا على أى حال، وسوف أراقب كل ما يحدث حولى من الفرسان فى الطريق إلى الميدان. وفى القتال نفسه، وأنا آمن وراء الربوة. فالحياة أيضا، كتاب مفتوح، فاتنى كثيرا قراءتها، ومعرفتها.

سار البطال بجواده «السحاب» مع صفوف من الجنود الفرسان، بين أبيه، والشيخ عقبة، وكان يتقدم الجيش الأمير عبد الوهاب، ومن ورائه خمسون ألف فارس وراجل، وبين الفرسان المدرع، وغير المدرع، مثل البطال، وفى أغماد الكل من جهة السيوف، ومن جهة أخرى: الرماح، والأقواس، وجعب السهام. وابتسم البطال حين رأى الشيخ عقبة لا يركب سوى بغلة، ويتحرك مبتعدا بين الصفوف، يحث الناس على الجهاد، ويعدهم بجزيل الثواب، وحين يعود ليسير بجانبه يأخذ فى قراءة آيات القرآن الكريم. وتلاوته. وتعجب البطال من حماس الشيخ عقبة، وتقواه التى لا عهد له بها. وتذكر قوله له: «إذا انهزم جيشنا والعياذ بالله، نكون أول الهاربين، أنا وأنت».

وسأل البطال السيد قليح فى الطريق عن سر هذا الحماس الشديد من الشيخ عقبة، وهو لا يركب سوى بغلة، فقال له قليح باسما:

– إنه يطمع فى منصب القضاء.

وسعد البطال، حين وجد معه فى الجيش، رفاقه من تلاميذ الشيخ عقبة، وأبناء الحى الذى يسكنه فى ملطية، فراح يتحدث معهم، دون أن يشعر بالوحدة طوال الطريق.

وقال له قليح، والجيش يقترب من السهل الذى سيكون بـه القتـال والنزال:

– تذكر يا عبد الله: إن العلم لا ينفصل عن حـب الوطـن، بـل هـو مكمل له، ومن يتبحر فى العلم، يعشق وطنه، ويحـب قومـه، ويضـع علمه فى خدمة الوطن وأهله.

* * *

فى مرج العيون

توقف الجيش فى سهل «مرج العيون». كان السهل أرضًا فسيحة تحيط بها الجبال. وراح الجند ينصبون الخيام فى سفوح الجبال. وكان البطال مع الفقهاء والعلماء فى أول السهل، حين اقترب منه أبوه، قائلا له:

– أتعلم يا بنى، لماذا اختار الأمير عبد الوهاب والقواد هذه البقعة من الأرض، لتكون معسكرًا للجيش؟

فنظر البطال، من فوق جواده السحاب، وجال بعينيه فى أرجاء السهل، وتمشى بجواده قليلاً، متفكرًا، ثم عاد إلى والده، والحصان يشب به، وقال له:

– إن هذا السهل مناسب للقتال، فهو قريب من الحدود الإسلامية، وجزء منها، وهذه الجبال من خلف جيشنا تحميه وتخفينا إذا انهزمنا. وهو قريب من ملطية، لنجدة الجيش بالإمدادات، وهو سهل مراعٍ تجرى فيه مياه العيون، فلا يكسوه الغبار الشديد الذى يشوش الرؤية عند القتال، ويشرب فيه الجند والخيل بيسر أينما يكونون، ورائحته زاكية، يجعل الجنود يحاربون دون إرهاق.

فقال أبو البطال معجبا بابنه لأول مرة:

– إذا أضفنا إلى ذلك كله، الروح العالية لجنودنا، فإننى أتوقع النصر للمسلمين.

وسكت أبو البطال لحظة، ثم قال:

– بارك الله فيك يا بنى، واطمئن، سوف تكون وراء الربوة كما وعدك الشيخ عقبة، فى أول هذه الجبال.

وهمس أبو البطال لنفسه: «ليت فعلك مثل قولك وفهمك يا بنى».

أقبلت الليلة الأولى بظلامها، وقمرها، ثم ولت مع بزوغ الفجر واستيقظ المعسكر كله بجنده وخيله، وفاحت فى أرجائه روائح الطعام، وعلت فى سمائه أصوات الجند والخيل، وهم يتدربون فى كر وفر، والبطال يرقب ويسمع باهتمام، شاكما جواده السحاب الذى يتحفز لمشاركة الجياد.

وعند منتصف النهار، ظهر غبار يسد الأفق، ويرتفع إلى عنان السماء. فأدرك جيش ملطية، أن العدو قد اقترب، وسوف يعسكر وراء قوس الجبال المقابل. وأرسل الأمير عبد الوهاب كشافته، لمعرفة قوة العدو.

وجاءت إليه الأخبار ليلاً، بأن جيش الروم فى مائتى ألف بين راجل وفارس، وأنهم فى أحاديثهم هذه المرة واثقون، من النصر على جيش ملطية، وأن العدو سيبدأ الحرب مع شروق الشمس، منحدرا من الجبال، إلى مرج العيون.

مع شروق الشمس، كان الرومان قد اصطفوا أمام الجبال. وبدأ الفريقان بالمبارزة، ثم بالمناوشة بإطلاق السهام. وافتقد أبو البطال ابنه،

فلم يجده بالقرب منه، ووجد جواده السحاب واقفًا فى انتظاره، فراح مسرعًا يبحث عنه، ليحميه من خوفه، أو من حماقته، بين الخيام الكثيرة، ولم يعثر له على أثر، فوقف حائرًا مع الشيخ عقبة، يفكر: «أين ذهب البطال؟ هل قتل خطأ، أم أنه فر عائدًا إلى ملطية عائدًا على قدميه، بدون جواده السحاب». وكان الجيشان قد التحما فى قتال عصيب.

وجاء الليل وتحاجز الجيشان، وكل منهما يحتمى بجباله، وينشر حوله حراسه الليليين، ولم يعلم أبو البطال أى خبر عن ولده، ثم سمع ضجة فى المعسكر، وصراخا فى خيام الطباخين، فسارع أبو البطال والشيخ عقبة إلى مصدر الضجة.

وفى إحدى الخيام رأيا طباخًا مغمى عليه، والبطال واقف بجانبه حائرًا يرتجف، وأفيق الطباخ بالبصل، والصفع، من إغماءته، وأخذ أبو البطال ابنه خارج خيمة الطهى، وسأله عما حدث؟ ولماذا جاء هنا إلى خيمة الطهى؟ ومنذ متى كان بها؟ فقال البطال فى صدق وأسى:

– حين التحم المبارزون من الجيشين، بحثت عن مكان اختبئ فيه، فلم أجد خيرًا من خيمة الطباخ هذه، فهى فى آخر الخيام. واختفيت داخل صندوق خشبى فارغ، وأطبقت علىّ غطاء الصندوق، وأخذنى النوم، إلى أن جاء الطباخ إلى خيمته مع الليل، دون أن أشعر به، ونام بجانب الصندوق. وحدث أننى عطست بسبب هواء الصندوق المكتوم، فخاف الطباخ فيما أقدره، وراح يبحث عن مصدر الصوت

وفتح الصندوق. وحين وقعت يده علىّ فى الظلام، شهق وسقط مغمى عليه. ولعله ظننى ثعبانًا، أو رجلاً من الأعداء، تسلل إلى الصندوق. ورق قلب أبى البطال لابنه، فقال له بعتاب:

– قلت لك ألا تنتقل من جانبى، لقد بحثت عنك فى كل مكان، لأصعد بك إلى الربوة التى وعدك بها الشيخ عقبة، هل تريد أن تجلب العار لى.

وصحب البطال أباه إلى خيمته لينام بجانبه، مع الشيخ عقبة.

❁ ❁ ❁

ومع صباح اليوم التالى، دقت طبول الحرب، وصهلت الخيول، وكان الشيخ أحمد قد ألبس ابنه البطال درعا واقيا من النحاس، لا تثقبه السيوف ولا الرماح ولا السهام، وأركبه جواده السحاب، وأوقفه خلف ربوة عالية فى الجبل تطل على مرج العيون، وكأنه واحد من الذين يحمون جوانب الجيش، وقال له:

– لن تخشى من شىء هنا يا بنى، إلى أن تفارقك هذه الرهبة من القتال. وثق أن عينى تلحظك من بعيد، فابق فى مكانك هذا، مع الحصان، ولا تغادره. وتركه وانحدر إلى الخيام فى مرج العيون.

واقترب وقت الظهر، والبطال يبدو فزعًا، وخائفًا خلف الربوة، ينظر إلى أسفل، وحواليه، بين آونة وأخرى. وإذا برجل مدرع يقبل نحوه بجواده، متلفتًا فى خوف، وفزع البطال، واستمد من فزعه شجاعة قصيرة، فتوثب شارعًا سيفه فى يده، صائحًا:

– من أنت؟ وماذا أتــى بـك هنـا؟ إذا لم تعـد قطعـت رأسـك بـهذا السيف البتار.

فاقترب الرجل منه بجواده، دون أن يشهر سيفه بدوره قائلا:

– لا تخف، فأنا مثلك خائف، وقد رأيتك وحيدًا، فجئـت إليـك، ليؤنس كل منا صاحبه، فى هذا الهول.

فقال له البطال بقسوة، عليه، وعلى نفسه:

– تقدم أيها الجبان، فإنك مثلى، وهنا معسكر الجبناء!!

وسأله البطال عن اسمه، فقال:

– اسمى المقدام، وياله من اسم لا يشبه صاحبه. وأنت، ما اسمك؟

فضحك البطال، وقال له:

– اسمى عبد الله، وينادوننى: يـا بطـال، لأننـى شـديد الخـوف، كثير الكسل.

ونظر الاثنان معـا إلى أرض القتـال، ورأيـا صـراع الجنـد بالسـيوف والرماح، وسمعا الصراخ والصياح، فقال المقدام للبطال:

– ما رأيك فى أن ندير ظهرينا إلى هذه المناظر المرعبة الدامية.

فقال له البطال:

– أخشى أن يأتينا سهم طائش، فيصيبنا دون أن نراه.

فقال له البطال:

– لا تخشَ شـيئًا يـا صـاحبى، فنحـن فـى مكـان بعيـد ومرتفـع، لا تطوله السيوف، ولا الرماح، ولا السهام، ولنتحـدث سـويا. مـا هـى هوايتك المفضلة، فى وقت الكسل، وكسلك، كما قلت لى، كثير.

فقال له البطال:

– هوايتى الوحيدة، والعمـل الوحيـد الـذى أقـوم بـه هـو: القـراءة وطلب العلم.

فابتسم المقدام، وقال له:

– إذنْ، تلاقينا فى الهواية، والطبـع، فأنـا أيضـا أهـوى القـراءة، وطلب العلم.

فقال له البطال:

– ويبدو أننا نتشابه أيضا فى السن. فأنت فى مثل عمرى.

فقال له المقدام:

– بل نتشابه فى لون البشرة أيضا، فكلانا أبيـض، أزرق العينـين، أحمر الشعر. أتعرف؟ قد يخطئ الروم. ويظنون أننا منهم حين يروننا، ولا يقتلوننا، لو.. لو لم نكن نرتدى هذه الثياب، وتلك العمائم.

فضحك البطال سعيدا، وقال:

– سنكون عندئذ فى خطر، فقد يظننا إخواننا من الروم، ويقتلوننا، ويظنون أننا رومان، نتنكر فى ثيابهم.

وضحك الاثنان سعيدين، ثم قال البطال:

– ما الشيء الذى يمشى على أربع فى الصباح، وعلى اثنين فى الظهيرة، وعلى ثلاثة فى المساء؟

فأجابه المقدام لتوه:

– إنه الإنسان يا صاحبى، فهو يحبو على أربع فى طفولته، ويسير على اثنين فى فتونه، ويتوكأ على عصا فى شيخوخته.

فقال له البطال بإعجاب:

– أحسنت، جاء دورك، فاسألنى.

فقال له المقدام:

– أب يبلغ من العمر ٧١ سنة، وله ابن عمره ١٥ سنة، فمتى يصبح عمر الأب مثل عمر الابن ثلاث مرات؟

وهرش البطال رأسه لحظة، ثم قال:

– عندما يبلغ عمر الأب ٥٤ سنة، فإن عمر ابنه يكون ١٨ سنة.

وقال البطال:

– جاء دورى. فاسمع منى. هناك ست كلمات، تتكون من حروف: الحاء، واللام، والميم، مع تغيير مواضعها ما هى؟

فقال المقدام فى الحال:

– حلم، حمْل، لحم، ملْح، محلّ، لمحْ.

وقالَ المقدام:

– أجبنى عن هذا اللغز الرياضى: ما العدد الذى إذا جمع ضعفه، ونصفه، وربعه، بالإضافة إلى واحد، يساوى مائة؟

فتفكر البطال قليلا، ثم قال:

– العدد هو: ٣٦.

ثم قال المقدام:

– ما رأيك فى أن يسأل كل منا الآخر، فى فوازير علمية؟

وفجأة صهل جواد البطال الأشهب، وجواد المقدام الأسود، وكأنهما يحذران من خطر فتلفت البطال والمقدام حائرين، فلم يريا شيئا، وعلى غير توقع، مرق من بينهما سهم طائش، واستقر فى غمضة عين، بين الاثنين وراء الربوة، فى الرمال، فسقطا معا خائفين، وتوقف صهيل الجوادين. وراح كلٌ من الرجلين يتلمس جسده عضوًا عضوًا، ويقول لصاحبه: انظر إلىّ. هل حدث لى شىء؟ هل جرحت؟ هل أصبت. وكل منهما يهز رأسه نفيًا لصاحبه.

وحانت من البطال نظرة، فرأى السهم يتحرك سائرًا فى الأرض، باضطراب فشهق قائلاً للمقدام:

– انظر حال هذا السهم، جزؤه الأسفل مختف فى الرمال، فكيف يتحرك هكذا، سهم يتحرك ويمشى وحده؟ كيف؟

ظل السهم يتحرك ماشيا إلى أن توقف عن الحركة، والبطال والمقدام يرقبانه فى فـزع، حتـى توقـف عـن الحركـة. عندئـذ تقـدم البطـال، وجذب السهم بيده، ثم بيديه الاثنتين، فلم يقـدر علـى إخراجـه مـن بين الرمال، فراح يحفر بطرف سيفه حواليـه، إلى أن وصـل إلى طرفـه المجنح، فوجد أن السهم قد أصـاب ثعبانًـا عظيمًـا وأدرك أن الثعبـان كان يتحرك بالسهم من حلاوة الروح حتى مات، وأن الجواديـن كـان يصهلان محذرين، خوفًا عليه وعلى صاحبه من الثعبان. وعندئـذ قـال المقدام:

– لو لم يأت هذا السهم بيننا، لقتلنا هذا الثعبان الضخـم، وتلوّينـا ألمًا من سمه الزعاف.

وأضاف البطال:

– ولو انحرف هذا السهم يمنة لأصابنى، أو يسرة لأصابك.

وقال المقدام:

– لقد نجانا الله مـن الثعبـان بالسـهم، ومـن هـذا السـهم المجنـح الطرف، لأمر ما، لا نعلمه، أتظن أن جزعنا وخوفنا يمد فى عمرنا؟

فقال له البطال متفكرًا:

– أتذكر يا صاحبى قصة سيدنا نوح. ألم يـدع نـوح ابنـه، لـيركب معه السفينة فـى الطوفـان، فرفـض. واعتصـم مثلنـا بـالجبل، فغـرق، ونجت سفينة نوح بمن عليها.

فقال المقدام:

– صدق الله العظيم ﴿كل نفسٍ ذائقَةُ الموت﴾. ﴿أينما تكُوْنُوا يُدرِكُكُم الموت﴾.

ونظر البطال إلى مرج العيون، وقال:

– هؤلاء الرجال من قومنا يحاربون فى سبيل الله والوطن، ونحن. ما أحقرنا.

وقال المقدام:

– انظر، ها هى فرقة رومية تحيط بالأمير عبد الوهاب، لو قتل هذا الأمير سينهزم جيشنا، ويحتل العدو ملطية، ويأخذ أسيرًا كل من بها، وفيهم..

فقال له البطال :

– فيم انتظارنا إذن وبكاؤنا على أنفسنا، والموت كان على قيد شبر منا؟

ووثب البطال على جواده، وفعل المقدام مثل فعله، وانحدر الاثنان إلى مرج العيون من فوق الربوة، وشد البطال لثاما على وجهه، وصوب المقدام سهمًا من قوسه، وأطلقه، فاستقر فى جبين أقرب فرسان الروم إلى الأمير عبد الوهاب.

وقال البطال للمقدام:

– فليدر كل منا ظهره للآخر، ليحميه.

واندفعا معًا يشتتان جماعة الفرسان الرومانيين عن الأمير عبد الوهاب، وكأن لهما خبرة عريقة بالقتال، من سنين مضت.

نجا الأمير عبد الوهاب من كمين العدو.

وطوال ما بقى من النهار، كان المقاتلون يتعجبون من فروسية، وشجاعة، ذلك الفارس الملثم المجهول، الذى راح يطيح بفرسان العدو، ويطعنهم بطرف سيفه، فى مواضع عجيبة من أجسادهم، لا نجاة منها.

وكان أبو البطال، والشيخ عقبة، قد افتقدا رؤية البطال فوق الربوة، فصعدا إليه، فلم يجداه، ولم يريا جواده، ورأيا فقط سهمًا مطروحًا، وثعبانًا ضخمًا طُعِنَ بالسهم. وقلق الشيخ أحمد على ولده، ونزل إلى مرج العيون، ليبحث عنه مرة أخرى.

* * *

الفارس الملثم

انحدرت الشمس نحو الغروب، وانفصل الجيشان مع هبوط الظلام، وأرسل الأمير عبد الوهاب حراسه للبحث عن الفارس الملثم، وصاحبه القواس.

وكان البطال قد ذهب إثر المعركة، مع الغروب، ودخل على أبيه خيمته، ونزع اللثام عن وجهه، فشاعت الفرحة فى وجه أبيه، وصاح:

- إذن فأنت هو الفارس الملثم، أنت يا عبد الله، الحمد لله، استجاب الله لدعائى. كم سأزهو بك أمام بنى سليم، وكل الناس فى ملطية.

وجاء حراس الأمير فى طلب الفارس الملثم، فاستأذن البطال من أبيه، للقاء الأمير. ودخل البطال ملثما مرة أخرى، مع صاحبه المقدام، ومد الأمير يده، وأزاح اللثام عن وجه البطال. وكان الشيخ عقبة فى مجلس الأمير، فصاح بدهشة حين رأى وجه البطال:

- أأنت هو الفارس الملثم.

وراح يضرب كفًا على كف من العجب، وقال للأمير فى فخر:

- إنه أحد تلاميذى الأذكياء أيها الأمير، واسمه عبد الله ابن أحمد بن مصعب، وكنا نسميه بالبطال، لكسله وخوفه.

فابتسم الأمير عبد الوهاب، وعانق البطال، قائلا:

– مرحبًا بفارس بنى سليم، ومرج العيون، فى اليوم العصيب. مرحبًا بك يا بطال.

والتفت إلى الشيخ عقبة، وقال:

– سيظل اسمه البطال، لأنه كثير البطولة، فقد محا اليوم كل ماضيه.

والتفت الأمير إلى المقدام، وقال له:

– وأنت ولابد هو القوّاس، ويومك فى الدفاع عنى مشهود. اجلسا يا صاحبىَّ.

وجلس البطال والمقدام مع الأمير، وراح البطال يحكى له دون خجل، ما كان من كسله وخوفه، وقصته هو وصاحبه مع الثعبان والسهم.

وعندئذ، تدخل السيد قليح قائلا للأمير عن البطال:

– كنت متوقعًا أن يتغير حال البطال، فهو فَتِىّ، وذكى. وأمَلى أن يستفيد به الأمير فى الحرب كمقاتل. وفى النجدة، فى مواقف الشدة، بالحيلة والخداع، فعنده لكل مشكلة حل، ولكل مأزق مخرج.

وحين خرج البطال من خيمة الأمير، تبعه السيد قليح، ومال عليه قائلا فى همس:

– لقد استفدت حقا يا بطال، من كتابى: « ينبوع الحكمة».

فتوقف البطال، وقال فى دهشة:

– أكنت تعلم ذلك يا سيد قليح؟

فابتسم، قليح، وقال:

– نعم، وتركتك تستخدم حيلتك لأخذ الكتاب، وأنا على يقين أنك ستعيده إلىّ، وأنك لن تطلع عليه أحدًا سواك، إلا من يستخدمه مثلك في الخير.

* * *

سر الألف فارس

تلك الليلة، ظل البطال ساهرًا، مشغول البال، وكان أبوه قد غفا. وخرج البطال، وجلس أمام الخيمة ينظر إلى النجوم الصافية فى السماء. وكان البطال مشغولاً بأمرٍ لا يعلمه أحد سواه. كان يفكر فقط فى أن الحرب خدعة، وليست فروسية فقط. وفوجئ بأبيه وقد صحا، وأتى وراءه، وهو يقول له:

– لِمَ لم تنم يا بنى؟ تعبت كثيرا اليوم. وغدًا يوم قتال مرير، إذا أردت أن تشارك فيه.

فنهض البطال، وقال:

– لم يواتنى النوم بعد يا أبى. اذهب أنت ونم. وسوف ألحق بك. سأمشى قليلا ثم أعود، فقال له أبوه بقلق، وهو يبتعد عنه:

– لا تبتعد كثيرًا عن المعسكر يا بنى. واحترس فقد يظنك حراسنا من العدو، فى ظلام الليل.

لكن البطال كان قد ابتعد. فدخل أبوه إلى خيمته ليستأنف نومه. ودهش البطال حين رأى المقدام فى أرض المعسكر، واقفًا ينظر إلى السماء. وحين رآه المقدام، همس قائلا:

– حالى مثل حالك، أفكر فى حيرة: كيف ننتصر على العدو، وهو فى أعـداد غزيـرة، كلمـا هزمنـا منـها فرقـة، واجـهنا فرقـة أخـرى، مدججة بالسلاح؟

فابتسم البطال وقال:

– بالخدعة يا صاحبى. بالخدعة.

ثم سأله فجأة:

– هل تعرف اللاتينية؟

فقال المقدام:

– أجيدها. وأنت؟

– أتحدث بها مثل أهلها.

وضحك المقدام. وقال:

– إذن فأنت تفكر فيما أفكر فيه. أن نتسلل معًا إلى معسـكر العـدو. لكن لأى هدف؟

فقال البطال:

– لدى خطـة. وسـوف يسـاعدنا شـكلنا، وظـلام الليـل، ومعرفتنـا باللغة اللاتينية فى تنفيذها.

مع إن الحراسة كانت شديدة، فى معسكر الأمير عبد الوهاب، فقد نجح البطال، والمقدام فى مغادرة المعسكر، واجتياز مرج العيون عرضًا، إلى قوس الجبال المقابل، الذى يعسكر وراءه الروم. وحين وصلا إلى الجبال، رأيا عبر الضياء الأخيرة. للقمر الذى كان يسقط فى الأفق الشرقى، حراس الروم فى سفوح جبالها وقممها، ولم يكونا اجتازا هذه الجبال من قبل، فراحا يلجآن إلى السير فى الدروب الضيقة بالجبال، يغطى أحدهما الآخر فى سيرهما، ولم يكونا يحملان من السلاح سوى خنجرين مرهفى الحدين، ويتوقفان فجأة، وكأنهما حجران من أحجار الجبال، حين يبدو لهما أحد الحراس هنا أو هناك. وكانت ترشدهما فى السير، أضواء خافتة، متناثرة، فى معسكر العدو، حتى وصلا إلى ربوة، وراء حراس الجبال، وكمنا وراءها، ينظران إلى خيام العدو، تملأ واديا آخر وراء الجبال. وبين الخيام كانت خيمة كبيرة فى المقدمة، يروح أمامها ويجئ، بصورة متقاطعة، ومتوازية حارسان. وراح البطال يحسب الوقت لحركة الحارسين، كى يتسلل بينهما مع صاحبه، من ورائهما، فى لحظة الابتعاد.

وأومأ البطال للمقدام، فزحفا بحذر منحدرين من أعلى الربوة، حتى اقتربا من الحارسين، وهمس البطال لصاحبه بكلمة واحدة: الآن، ووثبا منقضين على الحارسين، فى لحظة واحدة، وقد التف الساعد الأيسر لكل منهما حول رقبة حارس ضاغطة على عنقه، حتى لا يصدر عنهما أى صوت. وانغرس خنجران فى قلبى الحارسين، فى نفس اللحظة.

وراح البطال والمقدام يسحبان جثتى الجنديين إلى الربوة، ويختفيان معًا خلف حجر.

وبعد فترة وجيزة، برز البطال والمقدام، فى زى حارسيين رومانيين، وراحا يحرسان معًا الخيمة الضخمة الكبيرة، يتلاقيان، ويبتسمان، ويدير كل منهما ظهره لصاحبه، ويروحان ويجيئان وثمة سيف مشرع فى يد كل منهما، أمام الوجه، وكانا يرهفان السمع إلى الحديث الدائر وراء الخيمة، وياله من حديث بين ملك الروم، وقائد الجيش، وشخص يدعى: شيبان، سارعا على إثره حين انتهى، وقبل أن يغادر أحد خيمة الملك الرومى، بالانسحاب إلى الربوة، والتسلل مرة أخرى، بين الجبال، قبل أن يكتشف أحد مصرع حارسى خيمة الملك.

* * *

قرب الفجر استيقظ أبو البطال، ونظر حواليه، فلم ير ابنه فى الخيمة، فسارع بالخروج باحثًا عنه، ولم يجده أمام الخيمة، ولا بالقرب منها، ولا فى أى جهة من جهات المعسكر، فاندفع مسرعًا إلى خيمة الأمير عبد الوهاب، قائد الجيش، وطلب إيقاظه من راحته.

واستقبله الأمير عبد الوهاب، فقال أبو البطال:

– لقد خرج ابنى البطال، مع أوائل الليل، قائلا إنه سيتمشى فى المعسكر إلى أن يوافيه النوم، لكنه لم يعد حتى الآن، وأخشى أن يكون العدو قد اختطفه، انتقامًا مما فعله بهم، أو.. أصابه أى سوء.

فقال له الأمير عبد الوهاب باهتمام:

– لا تجزع. البطال هو ابن الجيش، وسنبحث عنه.

وبعث الأمير عبد الوهاب بسرية من الجند تبحث عن البطال فى كل مكان، بمرج العيون، وفى الجبال، فالبطال الآن عنده فارس الفرسان.

فى تلك اللحظة حين بزغ قرص الشمس، من وراء الجبال الشرقية المحيطة بمرج العيون، كان البطال والمقدام قادمين، من الجهة الغربية لمرج العيون، وهما يرتديان ثياب جنديين رومانيين، متجهين إلى معسكر ملطية، ولمحهما رجال السرية المكلفة بالبحث عن البطال، فظنوهما جاسوسين متسللين من معسكر الروم، أو رسولين من امبراطور الروم، أو لاجئين رومانيين إلى معسكر ملطية، ولم يخطر لرجال هذه السرية على بال، أنه يمكن أن يكون هذان الجنديان، هما: البطال والمقدام.

وأسرع رجال السرية بالإحاطة بهذين الرجلين من كل جهة، آملين أن يعرفا منهما أى خبر عن البطال، وعندئذ صاح البطال ضاحكًا:

– مهلا أيها الفرسان، أنا البطال، وهذا هو صاحبى المقدام.

ولم يعرفهما رجال السرية، مع أنهما يتحدثان بالعربية، وهما فى هذا الزى الرومانى، ولم يكن أحد من رجال السرية يعرف وجه البطال، ولا وجه المقدام. وقادوهما فى حراسة مشددة إلى الأمير عبدالوهاب. وحين رآهما الأمير، صاح بهما، وقد عرفهما لتوه:

– ما هذه الثياب التى تلبسانها. أين كنتما. هل تسللتما وحدكما إلى معسكر الروم، ودون أمرى؟ كيف؟ من أذن لكما؟

فقال البطال للأمير عبد الوهاب:

– ليس هذا وقت اللوم والمحاسبة أيها الأمير، فذلك هو ما فعلناه. ولكن قبل أن نقول شيئًا مما عرفناه، آمل آن تخلى هذه الخيمة إلا منك، ومنى، ومن المقدام، فما سنقوله سر حربى هام للغاية.

عندئذ ظهر الاهتمام الشديد على وجه الأمير، وأشار فأخليت الخيمة، وابتعدوا عنها إلى حيث لا يسمعون شيئًا مما يدور من حديث، داخل خيمة الأمير.

❁ ❁ ❁

وحكى البطال والمقدام للأمير حكاية دخولهما إلى معسكر العدو، وقتلهما لجندى الحراسة لخيمة الملك، وارتداءهما لثوبيهما الرومانيين، ودفنهما لثوبيهما العربيين، تحت الرمال، ثم قال:

– استمعت أنا والمقدام إلى نوايا العدو المبيتة لنا، فسوف يأتى إلينا لاجئًا ألف فارس من فرسان الروم الأقوياء، ويعلنون أنهم قد أسلموا، ويطلبون تعليمهم مبادئ الإسلام، والانضمام لجيش الأمير عبد الوهاب.

وكان الأمير عبد الوهاب يسمع مبتسمًا، فى هدوء، فأكمل القول، وقد استنتج خطة العدو قائلاً:

– ثم، فى غفلة منا، وقد اطمأننا إليهم، يقسمون أنفسهم على خيام المسلمين، وفى الليل يقومون بذبح من بها وهم نيام. أليس كذلك يا بطال؟

– لم تقل غير الصواب أيها الأمير، فذلك هو ما سمعناه. وبعدها يدخل امبراطور الروم بجيشه إلى مدينتنا ملطية دون مقاومة.

فقال الأمير عبد الوهاب للبطال والمقدام:

– تعاليا معى، سنذهب إلى أمى الأميرة فاطمة، فهى داهية سياسة وحروب.

وغادر الثلاثة خيمة الأمير.

* * *

لم تدهش الأميرة فاطمة لما سمعته من البطال. كانت قد جاوزت الستين من عمرها، ولكنها كانت لاتزال فى مسحة من الجمال، وفى جسدها عنفوان فارسة خبيرة، وكانت عيناها تتوقدان بالذكاء. وقالت الأميرة للبطال:

– هل رآكما أحد فى معسكر الروم، أو علم بسركما أحد، عدا الأمير عبد الوهاب.

فقال لها البطال:

– لا أيتها الأميرة الجليلة.

فقالت الأميرة:

– يجب ألا يعلم بهذا الأمر أحد من جنودنا، ولا حتى ولا من قوادنا. فقد ينتشر الخبر، ويصل إلى الروم، فيحتاط فرسانهم فى قدومهم إلينا، أو يلغى امبراطور الروم خطته هذه، وأرى أن نساعده بالتكتم على تنفيذها، ونتخذ الحيطة لنقلبها عليه، وعلى فرسانه.

فقال المقدام:

– نستقبلهم، ونجردهم من سلاحهم، ونرسلهم وراء خطوطنا إلى ملطية. .

فقالت الأميرة باسمة:

– رأى لا بأس به يا مقدام، لكننى أرى أن هؤلاء الفرسان لن ينخدعوا ويأمنوا لنا، ويسلموا سلاحهم إلينا. ولو فعلوا سيكونون خطرًا علينا فى ملطية، ويحتلونها من ورائنا حتى بدون سلاح.

فقال البطال عندئذ:

– عندى رأى، فلا يفل الحيلة إلا الحيلة.

فابتسمت له الأميرة، وأقبلت عليه، وقالت:

– هات ما عندك يا بطال، فمغامرتك فى صفوف العدو، تدل على أنك صاحب حيلة ودهاء، مثلما دل لثامك على شجاعتك المفاجئة، وتواضعك المدهش. قل حيلتك يا فارسنا الشجاع.

فقال البطال حيلته هامسًا، وراح الأمير والأميرة، ينصتان باهتمام إلى خطة البطال، وعلى وجهيهما لاح الشعور بالدهشة والانبهار، وكان المقدام فى ذهول من دهاء صاحبه البطال.

* * *

لم تمض سوى ساعة، وقد تهيأ معسكر الأمير عبد الوهاب فى الظاهر، فى ساحة المعركة، لاستقبال جيش الروم فى مرج العيون، وخوض معركة نهار آخر، ضارية، حتى انحدر من بين طرق الجبال ألف فارس رومى، مدجج بالسلاح. وعندما توسطوا المرج، رفعوا الراية البيضاء، وتقدموا وهم يكبرون بلهجة رومية، فاستقبلهم جيش الأمير خير استقبال، ولاحت من ورائهم فرقتان من جيش الروم تنحدر كالعاصفة من فوق الجبال. وكأنها تطاردهم. ونفذ جيش ملطية التمثيلية، فتصدى لهم جيش الأمير عبد الوهاب، فأسرع الروم بالانسحاب من المرج عائدين إلى ما وراء الجبال وظن امبراطور الروم أن العرب قد انطلت عليهم الخدعة، وظن فرسان الروم اللاجئين أن الأمير عبد الوهاب قد جازت عليه الخدعة بدوره.

ومر اليوم دون معركة ما بين العرب والروم. وقبيل الليل وزع الأمير فرسان الروم، على قواده العشرة، وأقيمت لهم فى الخيام ولائم عربية حافلة،مُدت لها الموائد فى الخيام.

وفى خيام الطهى كان البطال، يضع لفرسان الروم مسحوقًا منومًا من بذور الخردل، فى الطعام الذى سيقدم إليهم خاصة، على موائدهم

الخاصة، دون أن تتسرب منه ذرة، إلى طعام سواهم من جنــود جيـش ملطية.

وحين تناول فرسان الروم، وهم محتفظـون معـهم بأسـلحتهم، فـوق الثياب العربيـة التـى ارتدوهـا، دب الخـدر تدريجيًا فيـهم، وراحـوا يحلمون باللحظة، التى يذبحون فيها ذبحاً جُند المسلمين وهـم نيـام، وواصلوا حلمهم، وهم يستسلمون لنوم عميق.

وبات فرسان الروم ليلتهم أسرى فى معسـكر الأمـير عبـد الوهـاب، وقد جردوا من أسلحتهم. وفى الصباح أرسلوا أسرى مكبلين بالأغلال، إلى مدينة ملطية.

* * *

جاسوس رومانى

مع الصباح، بعث إمبراطور الروم جاسوسا ليطمئن على أن خطته قد نجحت، وتركه رجال الأمير يعرف الخبر بأن فرسانه قد أسروا، وَأرسِلوا إلى ملطية، فعاد مسرعًا إلى إمبراطوره بالخَبر الحزين.

واكتفى إمبراطور الروم، فى ذلك النهار، بالمناوشة بين جيشه والجيش العربى، وراح يفكر فى حيلة ينتقم بها من الأمير عبد الوهاب، لأسره لخيرة فرسانه، ولم يكن شخص البطال قد خطر له، ولا أحد من الروم، على بال.

وفى الليل، ومعسكر الأمير نائم، إلا من الحراس الذين يحرسون هنا وهناك، تسلل جاسوس رومى، إلى معسكر الأمير، ووصل إلى خيمة الأمير الذى كان يستسلم سعيدًا للنوم. وفجأة أحس الأمير بالخطر، فقد وصل إلى أذنيه صَوت خطو خفيف محاذر يقترب منه، فأرهف سمعه منصتًا، وفى اللحظة التى فتح فيها عينيه، رأى الأمير عبد الوهاب فى الظلام رجلا يهوى بخنجره صوب قلبه، فسارع بالانحراف، جهة اليسار، فأصاب الخنجر كتفه، ووثب الأمير عبدالوهاب، وضرب بجانب كفه عنق الجاسوس تحت أذنه، فسقط يتلوى صارخا، وأسرع حراس خيمة الأمير، إلى الأمير وألقوا القبض على الجاسوس الرومانى.

وبينما راحت الأميرة فاطمة تُمَرِّض الأمير المصاب، مع طبيبه الخاص، كان البطال يتولى بنفسه استجواب الجاسوس الرومانى المتنكر فى ثياب جندى عربى، ولحية مستعارة، وحين انتهى من استجوابه، صحبه إلى خيمة الأمير عبد الوهاب.

وأمام الأمير والأميرة، اعترف الجاسوس بأنه قد أرسل لقتل الأمير عبد الوهاب انتقامًا لفشل خطة الإمبراطور، وأسره لألف من الفرسان، دون حرب ولا قتال.

وأمر الأمير بقتل ذاك الجاسوس، فأسلمه البطال إلى المقدام، الذى قتله فى مرج العيون، أمام الجند، بسهم غاص فى قلبه.

* * *

وجاء نهار جديد، وتجددت المناوشات الحربية، بين الروم والعرب، دون اشتباك حقيقى فى القتال. وحين غربت الشمس، أبلغَ إمبراطور الروم، بأن الأمير عبد الوهاب حى، وأنه لم يصب بسوء، وكان الأمير قد أصر على أن يرتدى درعه، وينزل إلى ساحة القتال، فوق فرسه الأدهم، ويصدر أوامره إلى الجند، وأدرك الإمبراطور أن جاسوسه قد وقع فى الأسر، وأن معاركه مع العرب، لا فائدة منها فى هذا الصيف.

* * *

وصباح اليوم التالى، لم يلح للرومان أثر فوق الجبال الغربية، ولا وراء الجبال، وذهب البطال مع المقدام فى عملية استكشاف، وعادا

ليخبرا الأمير عبد الوهاب، بأن الرومان قد انسحبوا من ساحة القتال، فقال الأمير عبد الوهاب:

- إذن فلن يعودوا إلى قتالنا إلا فى الصيف القادم.

وأقام جيش ملطية فى معسكره بمرج العيون، إلى أن شفى الأمير عبد الوهاب فحلت الخيام من أوتادها، وحملت الغنائم على الإبل، وعاد الجنود إلى ملطية، وهم يغنون سعداء بالنصر على الرومان، ويتحدثون عن البطال وحيلته ودهائه، فخرًا به كفارس عربى شجاع.

* * *



رقم الإيداع	١٩٩٩/٨٢٩٥
الترقيم الدولى	977-02-5850-4 ISBN

٧/٩٩/٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)